حرب توتة الخاصة

كنت قد استيقظت فزعة ومدفعية السفن البرتغالية تقصف منزلنا، هرولت إلى المطبخ حيث كانت أختى حنان تعد طعام الإفطار وصوت القذيفة يطن فى رأسى وأنا أسير نصف نائمة، متصورة أننى مصابة وأن الدم لوث بيجامة النوم لأجد حنان تبتسم مشجعة وكأنى لا أنزف أمامها وتبادرنى بقولها ـ: ها الأمتحان الساعة كام ؟؟ أدركت وقتها أننى أحلم وأن التاريخ قد دخل فى بعضه، مع كثرة المذاكرة والقراءة للحروب، تصور عقلى الباطن، قصف السفن للشواطئ العربية فى كلوه وممبسه وباقى ساحل الصومال حتى وصل لبيتنا فى المعادي! وأنا أتناول البيض والقشطة، راجعت ما سمح به الوقت، ووجدتنى أفر ألف ومائة عام بالتمام والكمال ولا أدرى لماذا كان ذهنى منشغل تماماً وقد ارتسم أمامه "طبجية المدافع البرتغالية "وهم يقومون بتعمير مدافع الأسطول لقصف الشواطئ والدخان يتصاعد من فهواتها ليغطى الوجوه ووجدتنى أصرخ رائحة البارود، رائحة الموت. فى دخله حنان وهى تقول: ينهار حرقتى الجنز بتاعك.. حتروحى إزاى دلوقتى. وفعلاً كان الشياط قد عبئ المكان وانثقب البنطلون فى النصف بشكل لا يمكن أن أدعى معه إنه موضة، ألقيته جانباً لأخذ غيره أسود، حتى لو

أحترق "ميبنش". إلا أن حنان انتزعته انتزاعاً وهى تقول: خلصى نفسك أنتى وإلبسى اللى فوق، على بال ما أكوى اللى تحت .

❖ ❖ ❖

كانت اللجنة كخلية نحل، تطن بأزير الأصوات وكأنها ترانيم الصلوات أو الدعوات فى لغة غير مفهومة مختلطة الرطانة، الواضح منها فقط صياح المراقبين بصوت عالي: بس .. بس مش حنوزع ورق إلا لما الكل يخرس ويتهد، أنتو عيال، أنتو كبار، بس ؟ ومع تنامى الأصوات أطل دوى المدفع فى رأسى وقد تضاعف حجم الصوت حتى ابتلع فى داخله كل الأصوات وفجأة أصبحت لا أسمع شيئاً وحل صمت ترقب مفاجئ محل الصخب وتقارع الأدراج والطاولات وتقدم الكراسى وتأخرها وفى لحظة وجدت أمامى المدافع تتحرك للمواقع الأمامية والرجال قد انكبوا على صب البارود وشحن المدافع بالدانات ومع توالى وتتابع انطلاقات المدافع، بدون وعى اشتركت يدى بالقلم ترسم على الأسطر الحروف وتسجل الأحداث، أوامر بلغة السؤال ألغاز وطلاسم وضح أجب، أروى.. ما بين دون سباستيان وهو على صهوة جواده يقسم فرسانه الإيطاليين والألمان والبرتغاليين على شكل حربة ضد المغاربة عرب وأمازيغ يقاتل محصوراً بين الوديان ومخازن المياه والمنصور الذهبى وقد جمع قواته على شكل هلال، يرفع مدافعه ويواجه جيش البرتغال، بالنار والناس والحديد، كان الطلبة قد

شرعوا مع أقلامهم ومساطرهم يحركونها ذات اليمين والشمال حركة السيوف والحراب والبنادق ومع دوران الشمس أمتلأت أرض اللجنة بأمواج من البشر المتلاطم والمتلاحم وحلت صفوف المقاتلين محل صفوف الكراسى ببنادقهم وخيولهم وصدامات الكتل الحربية والتراب الثائر يخبئ الضوء والحر القاتل يصرع الجنود صرع الرصاص والنار والمياه تندفع لتحصرهم وتحصدهم فى الوادى الضيق بين الجبال ويتساقط الفرسان ويموت الملك سباستيان غريقاً فى ماء النهر وتدوى أصوات المدافع معلنة انتهاء القتال ويصيح المراقب : انتهى الوقت، انتهى الوقت، سلم ورقة الإجابة، مع هرولة المراقبين وتنازع الطلبة الأوراق معهم تنازع المنتصر والمغلوب.

أفقت على صوت زهور- : توتة، عملتى أيه .. حليتى أيه.

-: أسكتى ملحقتش أراجع حاجة . -: تراجعى أيه دا أنتى مبطلتيش كتابة ولو لثانية واحدة ومليتى الورقة وش وظهر . -: أنا؟؟ اللى هو أنا يعنى . -:أيوه يا توتة دا المراقب التخين كان بيجى جنبك ويقرأ من ورقتك وبعدين يشاور عليكى ويقول أهوه، كده العيال المذاكرة.

-: مسمعتوش بيقول كده خالص.

-: أنتى مكنتيش واخدة بالك ولا بتخزى العين ؟!

سكت، الواقع أننى لم أعرف ماذا أقول، كانت أصوات المدافع لا

تزال تزأر فى رأسى وكنت ألهث كأننى أجرى حول الأستاد ومع محاولات التذكر ، عرفت أننى ربما أجبت جيداً فى هذه المادة ولم يكن من الممكن تغير شيءً الآن.

❖ ❖ ❖

سنحت لى فرصة الحديث مع الدكتور/ عبد الله بعد ظهور النتيجة بأكثر من أسبوعين قال لي: أنتى الطالبة التى أخذت فى مادتي(عشرين على عشرين) "وكنت أعلم ذلك بالطبع" غير أنه استطرد فقال : لابد أن تكملى للماجستير فقد أعجبنى سردك لمعركة وادى المخازن ... و"حتى اللحظة" لم أعرف كيف كنت هناك فى قلب المعركة !! غير أننى ومع انجلاء غبارها عن نصر كبير كنتُ أيضاً من الرابحين.